

بحيرة الدوسن

تاريخها، أهميتها وأسباب زوالها

أ. قياد العبد

جامعة بشار- الجزائر

الملخص

تعتبر منطقة الدوسن (بسكرة) من أهم المدن النوميديّة القديمة، وجزءاً من بلاد الزاب الغربي، حيث تطرق لها أشهر المؤرخين والرحالة في كتاباتهم أمثال: ستيفان جزيل، شارل أوغيست لوران، جينات أوماسيب، عبد الرحمن ابن خلدون والحسن الوزان ومارمول كربخال، وهي تضم على امتداد جغرافيتها آثار ومنشآت ترجع إلى فترات مختلفة سواء الفترة القديمة أو الفترة الوسيطة. وللمكانة والدور الذي لعبته بحيرة الدوسن عبر مختلف العصور، قمنا بكتابة هذا المقال " بحيرة الدوسن تاريخها، أهميتها وأسباب زوالها " والذي يبين لنا طبيعة البحيرة وموقعها الجغرافي والجذور التاريخية لتكوينها، ثم نستعرض أهميتها لدى السكان وأسباب وعوامل زوالها منذ أواخر القرن الماضي.

Résumé :

Zone est considérée comme Doucen (Biskra) des villes les plus importantes numides vieux, et une partie du pays Zab ouest , où touché ses mois les historiens et les voyageurs dans leurs écrits , tels que : Stephan Gsell, Charles Auguste Laurent , Aumassip Ginette, Abd- El Rahman Ben Khaldoun et El-Hassan El-Wazzan et Marmoul Karbakhal , qui comprend la extension des effets de la géographie et des installations en raison des différentes périodes de temps , que ce soit la période ancienne ou intermédiaire . Et le statut et le rôle joué par le lac Doucen travers différents âges, nous avons écrit cet article " le lac Doucen son histoire, son importance et les raisons de sa disparition ", qui nous montre la nature du lac et de sa situation géographique et les racines historiques de la composition, puis examiner l'importance de la population et les causes et les facteurs de sa disparition depuis la fin du siècle dernier.

مقدمة

يعتبر الماء العنصر الأول الذي اعتمد عليه الإنسان من القدم لإختيار موطن عيشه، ومن ثمّ استقراره فيها، وقد شهد التاريخ القديم عديدا من الحضارات والدول التي عمّرت طويلا على ضفاف الأنهار والبحيرات، ولأن استقرار مختلف التجمعات السكانية بمناطق دون أخرى كان عامله الماء بلا شك، فقد أولته (الماء) أهمية بالغة لما رأّت في الحفاظ عليه استمرار لها، وازدهار ورقياً لشعوبها.

كما لعبت البحيرات دورا هاما على غرار الأنهار في أماكن استقرار الإنسانو بناء المدن والقرى حولها، وقد شهدت إحدى المدن النوميديّة القديمة "الدوسن" ثم أصبحت فيما بعد إحدى أهم مدن بلاد الزاب بالمغرب الأوسط ما كان يعرف "ببحيرة الدوسن" أو ما يسميه البعض "بحر الدوسن"، والتي كان منسوب مياهها معتبرا منذ عهد ليس ببعيد ونقصد بذلك فترة الإستعمار الفرنسي للجزائر وما بعدها، وذلك بشهادة كثير من الآباء الذين عاشوا هذه الفترة، غير أنه في الوقت الحالي لم يبق منها سوى موقع شاسع خال تماما من الماء. ويعد تاريخ هذه البحيرة من الموضوعات المهمة التي لم تحظ بدراسة أكاديمية معمقة، إذا ما تم استثناء ما جاء متفرقا وبشكل يسير جدا في بعض المجلات المختصة بالآثار أو ما أورده بعض الباحثين الفرنسيين. ومن هنا يبقى التساؤل حول ما إذا كانت البحيرة من صنع الطبيعة أم أنها مجهود خالص للإنسان؟ وهل يعود تاريخها إلى أقدم العصور أم إلى زمن قريب؟ وما مدى أهميتها وما الأسباب الحقيقية وراء زوالها؟.

1- الدوسن الأصل والتسمية:

لعل أهم من تطرق لأصل تسمية الدوسن ويّّن معناها هو الباحث الأثري الفرنسي ستيفان جزيل حيث ذكر أن لفظ "دوسن - DOUCEN" يرجع لأصول بربرية وتعني في لغتهم المكان المنخفض أو الأرض المنخفضة⁽¹⁾، لقد ورد اللفظ مختلفا في الشكلكند

المؤرخ الغربي مارمول كربخال بـ "دوسن"⁽²⁾ أما عند المؤرخين العرب فقد ورد اللفظ عند ابن خلدون بـ "دوسن"⁽³⁾، وعند الحسن الوزان بـ "دوسن"⁽⁴⁾، وكلهم لم يتطرقوا للمعنى اللفظ ما عدا ستيفان جزيل، ويرجع تاريخ استعمال هذه تسمية الدوسن بصفة واضحة إلى فترة الاحتلال الروماني للبلاد.

1- طبيعة وموقع البحيرة

لقد بينت لنا معظم الدراسات التي تطرقت لهذا الموضوع أن هذه البحيرة لم تكن مجرد أسطورة قديمة يرويها لنا الأجداد في وقتنا هذا، بل كان وجودها حقيقة وعلى امتداد مساحة واسعة من مدينة الدوسن القديمة، ويشكل موقعها مجرى لوادي الدوسن الحالي والناظر المتأمل لمكانها لا يلاحظ أي انخفاض لموقعها بل إن مجرى الوادي كله وعلى امتداده في مستوى واحد تقريبا مما لا يدع سبيلا لتجمع المياه وانحصارها في مكان واحد على شكل بحيرة دون وجود مانع طبيعي (جبل أو هضبة أو انخفاض) أو اصطناعي (سد تقليدي) على غرار البحيرات الطبيعية التي كان عامل الإنخفاض الدافع لوجودها مثل بحيرة شط ملغين ببسكرة.

وقد دلت بقايا الحاجز المبني بالحجارة على أنه سد تقليدي⁽⁵⁾ بناه الإنسان في إحدى الفترات الماضية لحجز الماء بهذا الموقع وبكميات كبيرة لاستعمالها في أغراض مختلفة، وأظهرت الحجارة المترامية حوله على أنه تحطم مع مرور الزمن، والملاحظ أيضا للحاجز يرى أنه لم يكن عاليا، لأن الوادي لم يكن عميقا أصلا بل كان مستويا وضيق، لأن السدود الشاهقة غالبا ما تبنى بين جبلين أو بين حافتي واد عميق، ولو سلمنا أنه كان مرتفعا أكثر من هذا لتطلب ذلك أكثر دقة وتصميما من الناحية الهندسية ولتسبب في صد العديد من مياه الأودية (محصر، بروت، روافد تامة) وهذا ما لا يحتمله سد كبير في الوقت الحالي خاصة مع حجم هذه الأودية الثلاثة.

اعتمدت البحيرة في تغذيتها على مياه الوديان بالدرجة الأولى، وعلى المنابع الطبيعية بالدرجة الثانية، وقد أجمعت كل المصادر على أن مياه البحيرة عذبة وقد أكدت لنا ذلك رواية الأجداد الباقين على قيد الحياة، وذلك راجع لطبيعة مياه الوديان والمنابع العذبة .

وحسب ما تظهره الآثار الباقية بموقعها أنه استعمل على السّد نظام للتحكم في كمية الماء من خلال تصريف المياه الزائدة عن طاقته للمحافظة على صلابته ولتجنب فيضانه، ويذكر الباحث الفرنسي شارل أوغيست في كتابه "مذكرة عن الصحراء الشرقية (واد سوف، ريغ، والزيبان) " أنه استعمل على السّد أيضا مصارف تتصل بها سواقي تمتد لتزود العديد من الأراضي الزراعية بالماء⁽⁶⁾ .

3- الجذور التاريخية لتكوينها

ليس هناك تاريخ واضح ومحدد لبناء هذا السّد وبالتالي تشكل البحيرة، وقد اختلف الكثيرون حول تاريخها، فبعض الروايات الشعبية أخطأت تماما حينما أرجعتها لفترة الإحتلال الفرنسي للجزائر وظنت أنها من إنشائه مثل بناء البرج سنة 1853م، ولربما أن الأجداد اعتمدوا في هذه الرواية عن آبائهم في وقت قامت به سلطات الإحتلال بصيانة بعض أجزائه لا ببنائه. إلا أن بعض الدراسات الأثرية على الأقل استطاعت أن تنزع اللبس وتحدد الحقبة التي تعود إليها البحيرة، فكثير من الباحثين الفرنسيين أكدوا لنا أنها كانت موجودة خلال العهد الروماني بالجزائر وعلى رأسهم الباحث الفرنسي شارل أوغيست الذي تكلم عن وجود حجارة مبعثرة تبين أن الرومان قد باشروا في إصلاح المصارف التي بنيت لغرض تعديل منسوب المياه ومن ثم المحافظة على صلابة السّد⁽⁷⁾، ونفهم من هذا أن السّد في هذه الفترة كان موجود وقد مر عليه زمن استدعى ترميمه.

وقد جاء في متفرقات المجلة المختصة بدراسة الآثار في عددها الصادر سنة 1942م قول كاتب المقال: "وكان الرومان قد أصلحوا المنابع" ومعنى ذلك أنها كانت موجودة قبل ولم

تستلزم إلا إصلاحات، وهذا ما يرجّحه الأستاذ العربي حرزالله ويرى أن بناء السّد يعود إلى فترة ما قبل الرومان⁽⁸⁾.

إن الآثار القديمة التي عثر عليها بالدوسن والمؤكد أن جزء منها ما يزال مجهولا، دلت على وجود عدة أنواع من القبور وأدوات استعمالها الإنسان القديم في حياته في جهات مختلفة من المدينة مثل: (الجاروف، مسناج، بروث، تامدة...)، تؤكد أن المدينة ترجع لفترة ما قبل التاريخ، وتدل على انتشار لتجمعات سكانية في هذه المناطق منذ القدم وقد أكد ذلك الباحث الفرنسي جينات أوماسيب (Ginette Aumassip) في كتابه "الصحراء السفلى في ما قبل التاريخ" على اكتشاف أنواع من القبور في مناطق عديدة، وقد تم دراستها تصنيفها ووضع أرقام لها⁽⁹⁾، وقد تكون الحياة في هذه الحقبة تطلبت بناء سد هذه البحيرة. وقد شهدت فترة الممالك النوميديّة مظاهر حضارية كثيرة نتيجة تأثرهم بالحضارات القرطاجية واليونانية وذلك إلى غاية الاحتلال الروماني لها عام 46 ق.م⁽¹⁰⁾. فإنسان هذه الفترة لن يعجز في بناء السد لأنه بني بطريقة تقليدية وبسيطة في مكان ضيق حتى لا يكلف كثيرا ويكون بذلك متقنا وأكثر مقاومة، وأنا أميل إلى أن وجود البحيرة يرجع لفترة ما قبل العهد الروماني استنادا إلى ما سبق.

4- أهميتها لدى السكان

إن الحياة بلا ماء مستحيلة ولأن الماء أصل وجود الإنسان في تجمعات دون الأخرى راجع لأهميته الكبيرة في ممارسة حياته، وقد لعبت بحيرة الدوسن دورا هاما في الماضي والحاضر، فالإنسان القديم لم يكن أقل تفكيرا وذكاء من الإنسان الحالي في تطويع الطبيعة لصالحه وإن كان ذلك بطرق بسيطة وتقليدية مقارنة بوقتنا الحالي الذي يعتمد فيه الإنسان تقريبا عن الآلة والتكنولوجيا، وقد أدرك أن الماء هو أصل التطور والنشاط الإنساني وحتى أنه اعتبر إلى جانب الغذاء (الطعام) السلاح الضروري أيام الحرب وخاصة الحصار لذا

بحيرة الدوسن، تاريخها، أهميتها وأسباب زوالها

فالسكان الأوائل لمدينة الدوسن بعد أن خلصت إليهم فكرة الإحتفاظ بالماء وربما أن المكان المسمى حاليا "الغويطسة"⁽¹¹⁾ هو الأنسب لتطبيق فكرتهم على أرض الواقع، ومن جملة فوائد البحيرة نذكر:

- استعملت المصاريف الموجودة في السد لتزويد الأراضي الصالحة بالمياه لأن النشاط الفلاحي كان الغالب لدى الإنسان وعلى مدى تعاقب العصور الماضية، وهو ما يسجل انتشارا واسعا وتنوعا للمحاصيل الزراعية ووفرة في الإنتاج.

- إن وجود بحيرة أو أي تجمع للماء وإن قل حجمه يساهم إلى حد كبير في تغذية آبار السقي التقليدية منها والحديثة وفي العهد القديم والحديث على السواء، فالآبار التقليدية التي تتميز بالعمق البسيط تغذيتها تكاد تكون مباشرة من المياه السطحية كمياه الأمطار والوديان وبالتالي ساهمت البحيرة إلى حد كبير في رفع منسوب الماء في هذه الآبار وعلى إمتداد واسع من المنطقة.

- لعبت البحيرة دورا هاما وخاصة أنها من البحيرات العذبة في استعمال مياهها من طرف الإنسان مباشرة من خلال شرب الماء منها واستعماله في مختلف الحاجيات (الطهي، الغسل...)، أو استعمالها في أمور مختلفة كتوريد الحيوانات على سبيل المثال.

- موقعها الممتاز فهي على مقربة من المدينة القديمة مما يسهل عملية جلب الماء إلى السكان دون عناء كبير أو تكليف من خلال إنشاء القنوات البعيدة والمكلفة.

- وجود عدد من القوارب التي استعملت للنزهة والصيد داخل البحيرة، فقد ورد أنه في الفترة الممتدة من (1854-1860)م كانت إقامة الشيخ ابن حرز الله بن الحاج أحمد من أولاد زكري ببرج الدوسن⁽¹²⁾ حيث كان يملك قوارب للصيد.

- تواجد عدة أنواع من الطيور المحلية أو المهاجرة كالمالك الحزينو البط يساهم في خلق بيئة رائعة وجميلة.

- تنوع الغطاء النباتي على مستوى ضفاف البحيرة ومجرى الوادي لوفرة المياه، بالإضافة إلى وجود العديد من الأشجار والنخيل والقصب.
- ساهمت عذوبة مياهها في وجود عدة أنواع من الأسماك، والتي تعتبر من أهم الأغذية التي عرفها الإنسان القديم وهي ثروة غذائية هامة في المدينة، وما زالت الأسماك في عصرنا الحالي تساهم بقسط كبير في اقتصاد الدول.

5- أسباب وعوامل زوالها

إن بحيرة الدوسن من البحيرات الإصطناعية، التي ارتبط وجودها بفعل الإنسان منذ القدم، ولم يكن للطبيعة من دور سوى ذلك الموقع الهام الذي بني فيه السد الذي يحجز الماء، وإن كانت يد الإنسان هي السبب في وجودها-البحيرة- فإنها أيضا هي السبب في زوالها وإن لم يكن بطريقة متعمدة ومباشرة، وهناك عدة عوامل من المرجح أن تكون السبب في جفافها نهائيا.

- إن أهم عامل لبقاء الشيء على حالته الأولى والأصلية هو المحافظة عليه من خلال أعمال الصيانة والترميم من وقت لآخر، ونلاحظ طول الفترة التي شهدتها تحتاج إلى صيانة من حين لآخر، إلا أننا لم نعثر من خلال هذا البحث عن حالات ترميم وصيانة مستمرة وبصفة واضحة، فقد ورد في المجلة المختصة بدراسة الآثار على أن الرومان أصلحوا المنابع وذكر الباحث شارل أوغيست⁽¹³⁾ أن الرومان قد باشروا في إصلاح المصارف هذا في العهد الروماني، أما في العهد الفرنسي فيذكر الباحث نفسه أنه اقترح على الإدارة الفرنسية سنة 1959 بإصلاح سد البحيرة حيث قال "إن إصلاح الخزان الرئيسي لن يكون مكلفا جدا، لأن المواد الخاصة ببنائه ما تزال مبعثرة، المغمورة منها وسط المياه أو الموجودة خارجها، ويكفي إعادة ترتيبها فقط."

- الحروب فقد كان لها الدور الغالب في تخريب السد وهذا ما يذكره الباحث شارل أوغيست الذي ذكر أن تحطمه قد يرجع لعامل الحروب التي شهدتها المنطقة غير أنه لم يوضح لنا أي حرب من هذه الحروب⁽¹⁴⁾. ويذكر أيضا الرحالة الحسن الوزان أن مدينة الدوسن أثناء الفتح الإسلامي شهدت حصارا دام عاما كاملا⁽¹⁵⁾، ولو سلمنا بطول فترة الحصار فمن المؤكد أنها شهدت معارك قد تكون أثرت في السد عن طريق القصد لقطع التزود بالماء كنوع من أنواع الحصار، أو عن غير قصد بسبب إهماله وتأثيرات الوديان المباشرة عليه.

- حينما وصف الحسن الوزان مدينة الدوسن ذكر أن أسوار المدينة المبنية بحجر ضخمة تبدو مخربة في واجهتين ولا يدري أكان ذلك بآلة أو بزلزال⁽¹⁶⁾، غير أنه لم يحدد لنا متى خربت؟ والأرجح أنها لم تكن مخربة أثناء الفتح الإسلامي لأنها قاومت الحصار عاما كاملا، ولا بعده مباشرة لأنه ذكر أن الأسوار المبنية بحجر ضخمة لم يمكن هدمها في عملية اقتحام المدينة وبقيت كما هي، وهذا التخريب يكون في الفترة الممتدة ما بعد الفتح وقبل عصر الحسن الوزان. ومن المحتمل أن هذا التخريب قد شمل سد البحيرة باعتباره لا يقل أهمية عن المدينة هذا لو سلمنا أنه بآلة، وقرب البحيرة من المدينة جغرافيا هذا إذا سلمنا أنه بزلزال، وأنا أميل للإحتمال الأول لأن فعل الزلازل من أبعد الإحتمالات.

- رغم وجود مصاريف للمياه تساعد في تخفيض ضغط الماء على السد إلا أن قوة مياه الوديان التي تمر على البحيرة (محصر - بروث - روافد تامة) تؤثر مباشرة في صلابة السد مع تعاقب السنين.

- إن المصدر الثاني لمياه البحيرة هو الينابيع العذبة كما أسلفنا وسواء كان منبعها قريب أو بعيد، فبعد مرور السنين لم تعد كما كانت مثل الأول، إما بسبب جفافها في حد ذاتها أو تحويل بعضها، غير أنه في الوقت الحالي لا نسجل أية واحدة باقية.

- بفعل وجود المصدات أو المحولات المائية في أماكن كثيرة على طول المجاري المؤدية للبحيرة، ينجر عنه تذبذب في منسوب مياه البحيرة، خاصة في حالات الجفاف أو توقف جريان الأودية لمدة، وقد لا تتأثر في الحالات الأخرى.

- عدم اهتمام الإنسان المعاصر لمرحلة اضمحلالها، واستغنائها عنها تدريجيا بسبب اعتماده على آبار الفأس التي تميزت في ذلك الحين بغزارة مياهها وقلة عمقها وسهولة حفرها، ثم استغنائها نهائيا عنها خاصة بظهور الآبار العميقة (المحفورة بالآلة) .

خاتمة

إن الفضل الكبير يرجع أساسا للإنسان القديم الذي أوجد هذه البحيرة، وإن لم نستطع أن نحدد فترته الزمنية بالتدقيق، كما يعود الفضل أيضا للذين حافظوا وساهموا في استمرار هذا الإنجاز الهام الذي دام نحو عشرين قرنا من الزمن على الأرجح، وتعاقت عليه أُمم وشعوب ودول بدءا من فترة ما قبل العهد الروماني حتى أواخر القرن العشرين.

إنه لمن المؤسف أن نتجاهل تاريخ هذه البحيرة وأن نمر عليها مرور الكرام وكأنها لم تكن، ثم نتناسى هذا الإنجاز الذي كان موجود منذ عهد قريب والذي شهده البعض منا بأم عينيه؟، وكيف لا نتأسف عَمَّا ورثناه من قدمائنا وحافظ عليه أجدادنا ثم ضيّعناه؟ .

إن حالة الجفاف التي تعيشها الدوسن منذ سنوات وفي ظل اتساع النشاط الفلاحي بها وبشكل كبير، أصبح يدق ناقوس الخطر، ثم إن طبيعة النشاط الذي يعتمد بالأساس على الماء، أصبح من الضروري التفكير جدّيا في هذا المشكل والبحث عن حلول عاجلة، وي طرح التساؤل: عن مصادر المياه؟ وكيف السبيل للحصول عليها؟ .

وأنا أتساءل أيضا هل سيأتي يوم ونفكر فيه ثم نقرّر ونعيد لهذه البحيرة مجدها؟، سواء من حيث ارثنا الحضاري الثقافي أو واقعنا الفلاحي الإقتصادي، وقد لا يكلف ذلك إلا قليلا؟؟؟.

الهوامش

- 1-St Gsell, Allus Archeogique Algerienne, Feuille 48 N° 11 , 1957.
- 2- مارمول كربخال، إفريقيا، ج3، ترجمة محمد الأخضر....، دار المعرفة للنشر، الرباط، 1989، ص 170.
- 3- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، 2000م، ص 585.
- 4- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ص 140-141.
- 5- العربي حرز الله، أولاد جلال أصالة حضارة وتاريخ، شمس الزيبان للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص 418.
- 6- Auguste Charles, Mémoire sur le Sahara Oriental (Oued Souf, Rhir, et les Ziban) , imprimerie Pourbier, Paris, 1959, page 38.
- 7- Auguste Charles, op.cit, p 38.
- 8- العربي حرز الله، المرجع السابق، ص 418.
- 9- Aumassip Ginette, Le Bas- Sahara dans la préhistoire, préface de G.Camps, édit du C.N.R.C, paris, 1986, p 141.
- 10- فتيحة فرحاتي، نوميديا (من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني (213-46) ق.م)، منشورات أيبك، متيجة، الجزائر، 2007م، ص 332-333.
- 11- بني السد في مكان يبعد بحوالي كيلومتر واحد شرق المدينة وآثاره مازالت باقية لحد اليوم.
- 12- العربي حرز الله، المرجع السابق، ص 417-420.
- 13- Auguste Charles, op.cit, p 38.
- 14- Ibid, p 38.
- 15- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، لبنان، 1983م، ص 140.
- 16- المصدر نفسه، ص 141.